فى المـــــاضى

للاســـــتاذ محمود محمد شاكر

كنت أتمنى أن يكون لى مكان هـذا القلم الأصم قلم حى نابض يصحبنى حيثما سرت ، ويلهمه الله من دقة الحس ما يجعله يتلقف كل خاطرة تومض فى أعماق نفسى ، ويشعر بكل هاجس يعتلج فى صدرى ، وإلا فإن الكاتب ذا القلم أعجز من أن يطيق لمّ هذا الشمل المتثال المتتابع من الخواطر والهواجس التى تنتابه وتعتريه وهو يرى أو يسمع أو يفكر . وفى هذا اليوم بعينه كنت أشد الناس ضراعة فى التمنى أن لو أتاح الله لى مثل هذا القلم النابض الحى حتى يأخذ عنى وعما يحيط بى ، ويسجله قبل أن تمسحه عن قلبى يد الدقائق والساعات التى جعلها الزمن رصداً على الأفكار تمحوها بالنسيان ، أو تطمسها بالفتور ، أو تعفيها بتراب الحوادث التى تجد فى كل لحظة من لحظات العمر .

* * *

خرجت أنا وصديقان لى ، هما الأستاذ علال الفاسى الزعيم المراكشى الصابر على لأواء الجهاد فى سبيل بلاده ، والأستاذ محيى حقى القصاص المبدع فى زمن ليس للابداع فيه قيمة ولا قدر ، وكان الذى دعانا إلى هذا الخروج فنان كهل قد ودع الصبا ولكنه تشبث بمطرفه ونفحاته وتوهجه ، فلا تزال تشم من فنه حين يتحدث عنه شذاً لطيفاً من عنفوان الصبا والشباب ، وذلك الفنان هو الصديق الأستاذ حسن فتحى المهندس الذى أبى أن يتعبد للهندسة ، بل أرادها أن تكون عبداً له يخدم فنه الذى يعيش فيه ويعيش به .

كان يوم الأحد السادس عشر من رمضان سنة ١٣٦٦ يوماً قائظاً ومداً يجعل العرق ثقيلا كثيفاً يضجر النفس ويأخذ بالأنفاس ، فلما ركبنا السيارة ، وتخففنا من بعض ثيابنا ، واستقبلتنا لفحات الهواء الساخن ، انتعشت القلوب ودبت فيها الحركة ، على سكونها وفتورها من شدة الصيام وحاجة الأبدان إلى الماء فى مثل هذا اليوم . وعندئذ بدأ الفنان يتحدث عن الوجه الذى يقودنا إليه ، فطاف علينا من حديثه مثل الظل ، حتى نسينا أننا فى رمضان فى يوم قائظ تحت الشمس . إنه ماض بنا إلى أثر عربى قديم فى ناحية « بيت القاضى » يقال له « قاعة محب الدين الشافعى » وتعرف أيضاً بقاعة « كتخدا » . فلما أوشكنا على دخول القاهرة القديمة شممت روائح مصر الإسلامية ، وتمثلت لعينى خوالى أيامها ، ورأيت كأن هذه الجموع التى تسير فى الطرقات كأنما انبعثت من الماضى البعيد بلباسها وشمائلها وآدابها رائحة غادية تحت عينى . وكان حديث الفنان يحيى هذه الصور فى نفسى حياة جديدة ، حتى كدت إخالنى أحدثها وأسمع رجع حديثها ، وأرى الثياب الفضفاضة ، والعمائم البيض ، واللحى المرسلة ، والسمت الوقور ، والمشية الهادئة ، وكأن كل شىء قد انقلب فجأة فصار ماضياً لم تمسخه يد الحضارة الغربية الحديثة ، ولم تمح من بهائه ورونقه ذلك الجمال الوديع اللطيف المطمئن القانع بالحياة كما شاء الله أن تكون .

ثم نزلنا من السيارة ، وفتح لنا باب القاعة التى صارت فى عداد الآثار ، فما كدت أقدم قطأ بلاطها الضخم حتى أحسست كأن قلبى ينتفض من فجاءة الذكرى ، وكأنى دخلت دارى التى ألفتها وعشت فيها ، وسمعت فى أرجائها غمغمة الحديث وقهقهة الضحكات ، والتى سعيت فى نواحيها طفلا وشاباً وكهلا حتى نشأت لها فى قلبى مودة لا تبليها الغربة ، ولا تطمس آثارها الرحلة فى أرجاء الدنيا ، وتطارح الزمن المشتت المفرق بين الأحباب والأحباب . ففى هـذا المكان عهدتنى أجلس على أريكة موشاة بالثياب المطرزة ، وأستقبل هذه « الفسقية » الجميلة التى أراها فى وسط القاعة ، مزينة أرضها بالرخام الملون المرسوم على أشكال تسترعى إليها العين راحة لا يعدلها شىء من متاع هذه الأرض . ومن هذا المكان عهدتنى أرى تلك الحلية الهائلة التى كأنها محراب الدهر ، مصنوعة منمقة ، قد أجلها وأدقها الصنع الماهر الذى لم يعبأ بالزمن كيف يمضى ويتصرم ، بل كان كل همه أن يتقن الفن الجميل الثابت الذى يريك الإبداع فى صورة حية باقية تشعرك بأن الحياة هى الاستمتاع بفن الحياة لا بأشياء الحياة . ومن هذا المكان كنت أرسل طرفى إلى القبة العالية التى تتوسط السقف كأنها هامة مفكرة كل أفكارها أحلام جميلة سامية لم تتدنس بالمطامع الدنية التى يكدح فى سبيلها الإنسان على أديم هذه البسيطة

وجعل صديقنا الفنان يحدثنا وهو يتدفق من نواحيه عن روعة هذا الذي نرى وعن جلاله وعظمته ، وعن هذه الضخامة الهائلة في البناء ، وكيف استطاع بانيها الفنان أن يحفظ النسب بين ضخامتها وبين سائر ما في القاعة كالأبواب وغيرها حتى لا يشعر الإنسان بالرهبة والمخافة والارتياع ، بل يشعره بأنه مالك هذا كله والمستولي عليه والمستمتع به ، فهو يروض الضخامة والضخامة حتى تكون أليفة مستأنسة محببة إلى رائيها وصاحبها ، فجعل الأبواب بين بين لا تطول قامة الرجل إلا قليلا ، ولم يجعلها هي أيضاً عاليـة ضخمة فخمة ، فيحس المرء عندئذ بالقلة والذلة والغربة والوحشة في البيت الذي هو سكن النفس ومكان ارتياحها ؛ وكنت أسمع هذا ونحواً منه ؛ ولكن لم يأخذني منه شيء ، فإني كنت أسمع همسات من هنا وهنا ومن ثم ، هي همسات الآباء والأجداد تذكرني بما أضفيناه من فن نحن أنشأناه وتعهدناه وقفنا عليه وأتقنا دقيقه وجليله ، ثم رحنا نستعير أشياء الناس نتشبع بها ونتصنع ، على غير هـدى ولا بصيرة ولا فن ، وأكاد أقول ولا حياة ، فنحن أحياء ولا أحياء ، لأننا نستعير حياتنا ولا ننشئها إنشاء ، ونتزين بزينة مسلوبة نحن فيها كالسلوك الأشمط الأغبر في ثياب ملك . كنت أسمع حديث الأسلاف ، وأسمع في صوت صديقنا الفنان وهو يشرح ويبين بكاء وحسرات وتنهدات وآلاماً كأنه وقف يؤبن أعزّ أحبابه متجلداً خاشعاً بين أقوام لا يحسون ما يحس ولا يشعرون بما يشعر به . إنه خليق أن ييأس ، ولكنه يجاهد حتى ينتزع الأمل من بين دواعي اليأس ، يريد أن يستنقذ الدرة المضيئة قبل أن تلفها الأمواج الطاغية العاتية وتذهب بها إلى حيث لا رجعة .

كنت كالمأخوذ لا أريد أن أفارق هذا الملك الذي أعيش في رحابه . إنها قاعة صغيرة ، ولكنها قد اتسعت حتى رأيتها تشمل كل هـذه الأرض المصرية لأن كل شيء فيها منتزع من طبيعة الأرض وجوّها وسمائها وأيامها ولياليها واختلاف فصولها ، ومن طبائع أهلها وشمائلهم ونوازع قلوبهم ومن كل شيء يقول أنا مصري عربي . وأخيراً فارقتها على رغم ، ولم أدر حتى انتهينا أو انتهت بنا السيارة إلى قاعة أخرى أو أثر آخر بني بعد جيل من زمان هـذه القاعة ، فكان الفرق بيناً . فقد أخذ الضعف يغزو القوة ، ولكن القوة أبت إلا أن تتبدى كما هي برغم هـذه الطوارىء التي تنتابها أو تعمل فيها . فههنا أثر الضعف الإنساني إذا بدأ الإنسان يشعر بأنه غير حر وغير مريد للحرية ، وأنه مروع في حياته بشيء لا يملك له دفعاً ولا رداً ، فهو يتخاذل وكذلك يتخاذل فنه ويتخاذل بناؤه . وهو حائر لا يدري ما يأتي وما يذر ، فإذا فنه حائر لا يدري ما يأتي وما يذر ، وهو مختلط الإرادة ، وإذا فنه مختلط يأخذ بأسبابها الأولى ولكنه لا يلبث أن يحيد عنها إلى شيء ليس منه ولا من خاص طبائعه . ومع كل ذلك فإن النفحة الخالدة لا تزال عالقة به تجعله قوة صريحة مصممة مريدة للبقاء .

ثم خرجنا إلى آخر أثر زرناه وهو « بيت السحيمي » ، وهو بيت كامل — لا قاعة ولا جزء من بيت — وأخذنا نطوف في أرجائه ونواحيه ، فهذه غرفة الضيوف ، وهـذا مصلى الرجال ، وهذا مكان الطعام ، وهـذه غرفة استقبال النساء ، وهذه غرف النوم ، وهذا مصلى النساء ، وكلها موزعة على مساحة الأرض في الطابق الأسفل والأعلى على نظام هندسي فيه شيء من التحرّر من أسر الهندسة الدقيقة ، فتكاد تشعر بأن بانيه لم يكن يبالي أن يتقيد بشيء ، بل يريد أن يكون حراً طليقاً يفضي من مكان إلى مكان كما يشاء له هواه . وكنت كلما دخلت منها مكاناً أحسست بشيء فيه يناديني ، فلما دخلنا القاعة الأولى هتف بي الهاتف إلى الصلاة ، فقمنا نصلي ، فكأني ما صليت في دار قط سوى هذه الدار . إن في روح البناء إسلامية عجيبة ، فيه ورع وصدق ومحبة وتخفف من ثقل هذه التكاليف الداعية إلى الكدح والطمع والعدوان ، وفيه ألفة لم أحس بمثلها قط ، ولم أشعر إلا يومئذ أن أصدقائي الذين هم أصدقائي لا معارفي ، ألقاهم بوجه وأستدبرهم بوجه ، ولم أجد إلا يومئذ تلك اللذة المنعشة بالأخوة تجمع بين الرجلين على اختلاف الدار والنشأة ، وخفق قلبي خفقة كأنه يقول لهلال الفاسي : مرحباً بك من أخ جمعت بيني وبينه أخوة هذا الدين النبيل الذي جعل أهله أمة واحدة فكانت خير أمة أخرجت للناس .

ومضينا نطوف بالدار العجيبة ، فكأني كنت أسمع حس أهلها وهم يتغادون ، وأراهم وهم يسعون وأشهد إمامهم وعبيدهم

وهم يطوفون عليهم ، وأرى الضيوف وهم يتسامرون . فلما دخلت غرفة استقبال النساء ، ورأيت الذوق اللطيف والنوافذ عليها المشربيات الدقيقة الصنع ، والخزانات القائمة فى الجدران بنقشها البديع ، ورأيت « الصفة » التى يلمع رخامها وتتحلى بزينة من رسومها الدقيقة وأعمدتها القائمة كأنها ساق غانية راقصة ، ورأيت ذلك الزجاج الملون بالألوان الهادئة الناعمة ، وهذا الجو الساطع بالفنى والنعمة ، الساكن بالوقار والطمأنينة ، الناعم بالرقة والجمال ؛ عندئذ أخذنى مثل الحلم فرأيت ربة الدار فى حليها الأنيق وثيابها الموشاة ، وضفائرها المرسلة . ووجه ينير فى جنبات هذه القاعة بالنبل والكرم والحفاوة بضيوفه من الأصحاب والأحباب ، وسمعت حديثهن المتخافت باللفظ الرقيق والصوت الناعم المنغم ، وانتهت إلى ضحكاتهن الحيية التى كأنها ابتسامة مشرقة من وراء نقاب . رأيت الماضى ينبعث كله بفضائله ورذائله ، ورأيتنى أعيش ساعة أتنسم نسمات من حياة أجدها فى دمى ، كما يجدها كل مصرى وعربى فى دمه ، ولكننا كدنا ننساها بطول الترك وقلة العمل على استحيائها واستنقاذها واستعادتها ، حتى نتعلم منها كيف نكون أحراراً فى التعبير عن سر طبائعنا الكامنة فى أعماق قلوبنا وضمائرنا . إن هذا الفن الذى أوحت به حضارة لها أصول لا تزال قائمة فى نفوسنا ، وفى تربة أرضنا ، وفى جو سمائنا — ينبغى أن ينبعث جديداً مرة أخرى بما يلائم حاجتنا ، وبما يعيننا على تمييز أنفسنا بين الناس فلا ندخل فى غمار حضارات الأمم التى لا يجمع بيننا وبينها وطن ولا خلق ولا دين ولا أدب ولا جنس ولا دم ولاشىء مما يتقارب به الناس أو يختلفون ، وتمنيت عندئذ أن أفيق من أحلامى فأجدنى قد رجعت إلى دارى فإذا هى تنهضنى بهذه النفحات التى تحيى النفس لأن فيها شيئاً من سر هذه النفس . فلما خرجنا من بيت السحيمى حقق الله طرفاً من هذه الأمنية .

لقد حملنا صديقنا الفنان إلى داره ، وهى فى عمارة كسائر عمارات القاهرة فى ظاهرها ، وهو يسكن منها شقة كسائر الشقق التى يسكنها سائر المصريين ، بيد أن المصريين يعيشون عبيداً لهذه الهندسة الغربية الغريبة عن بلادهم ، ويسكنون فيها إلى أنماط من الحياة ليست لهم وليسوا منها فى شىء . أما هو فما كاد يفتح لى الباب حتى هبت تلك النفحة السكرة من الماضى المنبعث حياً نابضاً كأحسن ما تنبض الحياة . لقد رفعت هذه الأبواب الحديثة الثقيلة ووضعت مكانها الستائر من النسيج العربى الشرقى بألوانه وتقاسيمه وفنه ، ووضع مكان بعضها أبواب مشبكة ، وأقيمت هنا وهنا المشربيات الدقيقة ، وبسطت الأرض بالبسط العربية الرسم المصرية الصنع ، وهذه الأرائك والمناضد والقناديل وكل شىء يجعل البيت عربياً هادئاً مطمئناً فى وسط هذه المعمعة الطاحنة الفوارة التى تسحق طبائعنا ، وتمسخ قلوبنا ، وتحيل أذواقنا ، وتجعلنا عالة على الأمم ، نأخذ منها عارية لا تزيدنا حضارة بل تزيد بؤساً وشقاء وحيرة ونفوراً وقلقاً فى هذه الحياة وفى هذه الأرض ، وفى هذه الطبيعة التى تكتنفنا من حولنا ، وفى هذه الطبائع التى تستولى على دخائلنا وضمائرنا .

هذا بيتى ! هكذا قال لى قلبى ، فاطمأننت وكان الصوم والتعب قد بلغا منا جهداً ، فآوينا إلى مضاجعنا ، فلما قمنا إلى إفطارنا ، وأضيئت القناديل (بالكهرباء) ورأيت ظلال المشبك على الجدران وطالعتنى المشربية من ناحية البيت ، رأيتنى أحيا فى هذا الغموض الهادىء بقلب جديد نابض مؤمل فى الحياة ، مستبشر راض عنها غير يائس منها . وتمنيت لكل مصرى أن يقضى فى الماضى يوماً من كل أسبوع حتى يجدد حياته ، وحتى يتاح لنا بذلك أن نجدد لأنفسنا فناً وعيشة وسيرة وحضارة ليست مسلوبة ولا منتزعة ولا مستعارة من أحد من خلق الله ، بل هى فننا نحن وعيشتنا نحن وحضارتنا نحن ، تألفها نفوسنا وقلوبنا ، ويعرفنا الناس بها وتكون علماً علينا ، وتدل على أننا نصنع الفن فنجيد ، ونبنى الحضارة فنبدع كما أبدع آباؤنا رضى الله عنهم . يوم واحد نعيشه فى الماضى ونحس أننا قد عشته وتمليت بالعيش فيه ، لهو ذخيرة لا تنفد تعيننا على فهم طبيعة الأرض التى نسكنها ، وعلى الوصول إلى كنه ما تنطوى عليه نفسك ، وهو بعث للهمة الراقدة وإحياء للقوة الكامنة ، وتحرير لنا من أسر التعبد للمدنية الغربية على غير هدى وفى غير طائل . يوم فى الماضى يحرر المرء من أسر الحاضر ، فإذا نالت النفس حريتها فهى خليقة أن تعرف طريقها إلى تحرير أمة من استعباد أمة أخرى ، أرادت أن تفرض عليها إرادتها وحضارتها معاً . ونحن مقبلون على اليوم الذى ينبغى أن نملأ فيه قلوبنا حرية مستمدة من أصولنا البعيدة ، لا حرية مستعارة من الأمم المعاصرة ، فلنرجع إذن إلى الماضى قليلا ، ففيه المدد الذى لا ينفد والمعين الذى لا يغيض .

محمود محمد شاكر